

نواجد العاشقين عند ذكر المحبين

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين الطاهرين. أما بعد،،

فاعلم أخي المؤمن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأوامر ونهانا عن نواهٍ، وترك لنا أشياء كثيرة تخفيها عنا ورحمة بنا وهي من قبيل المباحات، ومن هذه الأشياء القيام بمدحه عليه الصلاة والسلام كما كان من حسن بن ثابت حيث قال:

أغرُّ عليه من النبوة خاتمٌ
وضمَّ إليه اسم النبي إلى اسمه
مِن الله مشهودٌ يلوخُ ويُشهدُ
إذا ما قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ
وكذلك ما قاله صاحب البردة كعب بن زهير في قصيدته:

بانت سُعادٌ فقلبي اليومَ متبولٌ
مُتيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

وكذلك ما حصل من بنات النجار حيث مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طرقات المدينة وهنَّ ينشدن:

نحن بناتٌ من بني النجار
يا حبذا محمدٌ من جار

فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿إني لأحبكن﴾ (رواه ابن ماجه).

وكذلك ما حصل من المرأة التي نذرت أن تضرب بالدف بين يدي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فأذن لها كما رواه أبو داود في (السنن).

ومن هذه الأشياء التي تركها لنا المولى سبحانه وتعالى مسألة الحركة أثناء الذكر، من تحريك للبدن عند سماع الذكر وغيره، ولهذا الفعل أصلٌ يدل عليه من القرآن والسنة وعمل الأئمة المعترين رضي الله تعالى عنهم، ومن المعلوم أن الذكر على اختلاف صفته إن كان قرآناً أو تسييحاً أو تهللاً فإنه يخاطب الروح التي تسمو وتتعالى به حتى تصفو من كل كدر، فحينما يقرأ العبد القرآن أو يذكر الله تعالى تستمد روحه من ذلك غذاءها فتكتسب قوة وصفاء يهتز الجسم لها، وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن، فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها إذا سمعت كلامه أو اسمه، فتكاد تلحق بعالمها السماوي الروحاني حيث الملاء الأعلى، وتتجرد من ظلمة هذا الجسد وتتخلص من عوائقه.

ومن الأمور المسلّم بها أن الإنسان يتأثر بالكلمة الطيبة، ويهتز للصوت الرخي، ويطرب للنغمة الجميلة والإيقاع الموزون، ويأسره المنظر البهيج، ولا يدري كيف تتم هذه الأمور في نفسه أو أين محلها في ذاته، فإذا أراد التعبير عنها باللغة الموضوعية للتخاطب جاء تعبيره ناقصاً، وخانته العبارة إذا أراد أن يفصح عنها إفصاحاً واقعياً؛ لأنها أمور لا تُنال إلا بالذوق، ويقف الحس منها حائراً لا يستطيع ضبط نفسه عن ذلك التأثير، فتصدر عنه أصوات أو حركات دون إرادته، ويستولي حب الذكر على قلب صاحبه استيلاءً قوياً، ويتمكن منه تمكناً لا يستطيع ضبط نفسه عنده، وهذا ما عبر عنه العلماء العارفون بـ (الوجد والتواجد)، قال الشيخ

ابن القيم الجوزية في كتابه (مدارج السالكين): "الوجد ما يصادف القلب ويرد عليه من واردات المحبة والشوق والإملاك والتعظيم وتوابع ذلك، والمواجيد فوق الوجد، فإن الوجد مصارف والمواجيد ثمرات الوارد، وكلما كثرت الواردات قويت المواجيد".

قال الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام): "الوجد رقة نفسية، وهزة قلبية، ونهضة روحانية، وهو ما كان يبدو على جملة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو البكاء واقشعرار الجلد التابع للخوف الآخذ بمجامع القلوب، وبذلك وصف الله تعالى عباده في كلامه حيث قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الزمر: من الآية 23)، وقد يعترض البعض على ما يفعله أهل الذكر من القيام أثناء الذكر وما ينتج عنه من تمايل واهتزاز، فيسارع منكراً ومبدعاً ومفسقاً بلا حجة ولا معرفة، وعدم المعرفة بالشيء لا يعني عدم وجوده أو عدم صحته، لذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: من الآية 43)، وما نحن في هذه المسألة نسوق الأدلة الواضحة والصریحة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفعل الصحابة الكرام وإقرار العلماء الأعلام على جواز التمايل والوجد عند ذكر الله تعالى لمن شاء، فنقول وبالله التوفيق:

أدلة جواز الحركة في الذكر من القرآن الكريم

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (سورة آل عمران: من الآية 191)، فتدل هذه الآية على جواز الذكر قِيَامًا وَقُعُودًا، وذكر الألوسي في تفسيره (روح المعاني) عند قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ بعد كلام طويل ما نصه: "وعليه يُحْمَلُ ما حُكِيَ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وعروة بن الزبير وجماعة رضي الله تعالى عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾، فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم على أن مرادهم بذلك التبرك بنوع موافقة للآية في ضمن فرد من أفراد مدلولها" اهـ.

فالذكر لا يختص بهيئة معينة، قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): "ذكر الله تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه، ومن هذا المعنى قول السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: ﴿إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ﴾ (رواه الشيخان)، إلى أن قال: "فذاكراً لله تعالى على كل حالاته مثاباً مأجوراً إن شاء الله تعالى".

وهذا النص من إطلاقات العموم ولا يجوز أن نخصه بدون مخصص كما هو معلوم عند أهل الأصول، إذ إن التخصيص بدون مخصص حرام، ولا يجوز إخراج فرد من أفراد مدلوله إلا بدليل، وإخراج فرد من أفراده بدون دليل تهكم وتهجم على كتاب الله تعالى.

أدلة جواز الحركة في الذكر من السنة النبوية المطهرة

أما بالنسبة للاهتزاز أثناء الذكر فله أصلٌ في السنة المطهرة، فالنصوص جاءت واضحةً جليةً بلا حاجة إلى أي تأويل، ومن هذا القبيل ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: ﴿رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسترني بردائه، أنظر إلى لعبهم﴾.

وجاء في باب الحراب والدرق يوم العيد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أيضًا: "وكان يوم عيد يلعبُ السودان بالدرق والحرب، فإما سألت النبي وإما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿تشتهين تنظرين؟﴾، فقلت: نعم، ﴿فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول صلى الله عليه وآله وسلم: دونكم يا بني أرفده﴾، حتى إذا مللت قال عليه الصلاة والسلام: ﴿حسبك﴾، قلت: "نعم"، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فاذهبي﴾.

قال ابن حجر العسقلاني في (الفتح): "وفي رواية الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: "كان الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون بكلام لهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ماذا يقولون﴾، فقيل: يقولون: محمد عبد صالح"، وفي رواية أبي سلمة هذه الزيادة عنها رضي الله عنها وعن أبيها قالت: "ومن قولهم يومئذ: أبا القاسم طيباً" وروى مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: "جاء حبش يزنون في يوم عيد في المسجد، فدعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضعت رأسي على منكبه، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي انصرف عن النظر إليهم"، قال النووي في (شرح صحيح مسلم): "معنى يزنون: يرقصون"، قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في كتابه (إحياء علوم الدين): "والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، ولو كان حرامًا لما نظرت السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم يزنون".

وكان الدافع لرقص الحبشة في المسجد ما قاله ابن حجر العسقلاني في (الفتح): "وكان من عادتهم - أي الحبشة - اللعب في الأعياد، ففعلوا ذلك كعادتهم ثم صاروا يلعبون يوم كل عيد، ويؤيده ما رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة لعب الحبشة فرحًا بذلك، لعبوا بحراهم، ولا شك أن يوم قدومه صلى الله عليه وآله وسلم عندهم من أعظم الأعياد".

قال العلامة عبد الحي الكتاني في (التراتب الإدارية) معلقًا على هذا الحديث: "وحيث لم ينههم صلى الله عليه وآله وسلم بل أقرهم وأغراهم، فهو ذكرٌ فُصِدَ به التعبد والطاعة وإظهار الفرح بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فلذلك أقرهم عليه الصلاة والسلام وعجب من فعلهم ونالوا غاية الرضا منه"، وأكثر من ذلك ما رواه الإمام أحمد والعقيلي وأبو نعيم والبيهقي بروايات مختلفة حاصلها: "أن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام اختصم هو وجعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهما في ابنة حمزة، فقال صلى

الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: ﴿أنت مني وأنا منك﴾، فحجل عليّ عليه السلام، وقال لجعفر بن أبي طالب عليه السلام: ﴿أشبهت خلقي وخلقي﴾، فحجل، وقال لزيد رضي الله عنه: ﴿أنت أخونا ومولانا﴾، فحجل زيد "الحديث". قال الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي: "الحجل: هو رقص بهيئة مخصوصة" ١٠٥هـ.

وقال فقيه الشافعية بمكة المكرمة العلامة أحمد بن زيني دحلان في كتابه المشهور (السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية) عند ذكره لحديث الحجل ما نصه: "فرقص جعفر رضي الله عنه من لذة الخطاب، فلم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل ذلك أصلاً لرقص الصوفية عندما يجدون لذة المواجيد في مجالس الذكر والسماع".

ولقد تحركت الجمادات طرباً وسروراً بالمحجوب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما روى ذلك البخاري ومسلم في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم "عندما صعد صلى الله عليه وآله وسلم أحدًا يومًا ومعه أبو بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فاهتز الجبل واضطرب، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿اثبت أحد، فإن عليك نبي وصديق وشهيدان﴾، فيا ليت شعري لماذا اهتز واضطرب!!!".

واعلم أخي الكريم أن الوجد والتأثر عند ذكر الله تعالى وظهور ذلك على الأعضاء الظاهرة بعد فيض النور من باطن الشوق والمحبة تمتع به الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى أبو نعيم في (الحلية) عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكروا الله تمايلوا يمينًا وشمالًا كما تتمايل الشجرة بالريح العاصف إلى أمام ثم إلى وراء"، ويؤيد ذلك ما رواه أبو أراكة حيث قال: "صليت مع علي عليه السلام صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث، وكان عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قدر رمح صلى ركعتين ثم قلب يده"، فقال: "والله لقد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا غبرًا بين أعينهم كأمثال ركب المعز، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت عيونهم حتى تبل ثيابهم" (رواه ابن كثير في البداية والنهاية، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر في الكنز، والكاندهلوي في حياة الصحابة).

وقد سئل الإمام العلامة جلال الدين السيوطي الشافعي عن مسألة في جماعة صوفية اجتمعوا في مجلس ذكر، ثم إنَّ شخصًا من الجماعة قام في المجلس ذاكرًا واستمر على ذلك الوارد الذي حصل له، فهل له ذلك سواء باختيار أم لا؟ وهل لأحد منعه وزجره من ذلك؟

فأجاب قائلًا: "لا إنكار عليه في ذلك، وقد سئل عن هذا السؤال بعينه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني فأجاب بأنه لا إنكار عليه في ذلك، وليس لمانع التعدي لمنعه، ويلزم المتعدي بذلك التعزير، وسئل عنه العلامة برهان الدين الإنباسي فأجاب بمثل

ذلك وزاد أن صاحب الحال مغلوب، والمنكر محروم ما ذاق لذة التواجد ولا صفا له المشروب" إلى أن قال في آخر جوابه "وبالجملة فالسلامة في تسليم حال القوم" انتهى من (الحاوي في الفتاوي).

الخلاصة

إن التواجد والتمايل والجلوس والوقوف الذي يفعله أهل الذكر فرادى وجماعات ثابت بصريح الأدلة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما فعل بحضرته من صحابته الكرام الأتقياء الأنقياء كما روته لنا كتب الصحاح والسنن كالبخاري ومسلم وأحمد وأبي داود وغيرهم، والذي فهمه كبار العلماء كالنووي وابن حجر والإمام السبكي حيث يقول:

قيامي على الأقدام حقٌ وسعيها للقيّاك يا فردَ الزمانِ أكيدُ
فقد أمر المختار أنصاره به لسعدٍ الذي قد مات وهو شهيدُ

وغيرهم كثير ممن يصعب حصره، زيادةً على أننا نسمع من يعترض على ذلك وما ذرى أنه يعترض بذلك على كتاب الله وسنة المصطفى الأواه صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يقرُّ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا وجعفرًا وزيدًا عليهم السلام على منكر فعلوه، أم هل يرضى لزوجهِ أمِّ المؤمنين ويشترك معها في فعل المنكرات كما يلزم من قول المنكر، حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم وحاشا آلَه وصحبَه الكرامَ من ذلك، لقد كان الأجدر بالمنكر أن يتثبت قبل أن يطلق العنان للسانه، سبحانه ربي هذا بمتان عظيم.

الخاتمة

اعلم أيها الطالب للحق أن اتباع الشرع لا يتوافق مع اتباع الهوى، فهما نقيضان لا يجتمعان في جوف امرئ طالب للحق، ورغم ما أشار إليه الكتاب تلويحًا والسنة تصريحًا وفهم ذلك السابقون من أهل العلم وساروا عليه وتبعهم في ذلك المتأخرون وعلى رأسهم خاتمة الحفاظ الإمام ابن حجر والإمام السيوطي وغيرهم من غير إنكار على الآخرين، إذ المعترض هو الملزم بالإتيان بدليل التحريم، ومع ذلك فإننا نقول أن الذاكِر الذي يتأثر بالحركة له أن يفعل ذلك، والذي يتأثر بالسكون فله ذلك أيضًا، والأذواق في ذلك مختلفة، ولا سبيل لإنكار ذلك وإن غاب هذا عن عوام المسلمين في هذا العصر بل عن كثير ممن ينتسبون للعلم، والله درُّ الإمام أبي مدين رضي الله عنه حيث يقول:

وقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقًا إلى اللقا نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حنَّ إلى المعنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاد فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى تهزها الأشواق للعالم الأسنى

أنلزمها بالصبر وهي مشوقة وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فيا حادي العشاق قم واشد قائمًا وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا

نفعنا الله وإياكم بأسرار كتابه، ورزقنا الله وإياكم الوقوف مع آدابه، وحشرنا الله وإياكم في زمرة نبينا وآله وأحبابه، والله الأمر
من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله ورسوله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى اللهم وسلّم وزد وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين الطاهرين